المحاضرة 3: المماليك البربرية

غالبًا ما تفتقر السجلات التاريخية القديمة إلى ذكر الممالك البربرية وتفاصيل تاريخها في مناطق المغرب. باستثناء بعض الإشارات الضبابية إلى أسماء ملوك البربر، دون تقديم وصف مفصل لهم أو لمملكاتهم. ونتيجة لذلك، فإن معرفتنا بتلك المملكات، خصوصًا في مراحلها الأولى، تكون محدودة للغاية. بالإضافة إلى ذلك، عدم وجود دلائل أثرية داعمة لم تكن مفيدة في هذا الصدد.

على أي حال، كانت هذه المملكات لها طابع قبلي بارز. غالبًا ما كانت القبائل البربرية المجاورة تتحالف في تحالفات قبلية كبيرة لمواجهة أعداء مشتركين أو لتحقيق مصالح مؤقتة مشتركة. وهذا ما حدث مع القبائل البربرية الليبية الغازية في أراضي النيل الفرعونية. تشكل هذه التحالفات القبلية المؤقتة مجالس لشيوخ القبيلة، يقودها زعيم يدير شؤونها بالتشاور القبلي. وعند انتهاء الهدف من التحالف، تنفصل القبائل وتعود بعضها إلى تحالفاتها القديمة.

هذه الهيكلية القبلية تسلط الضوء على التنظيم الاجتماعي والسياسي للقبائل البربرية، مما يبرز مرونتهم وقدرتهم على التكيف في مواجهة التغيرات.

لهذا يعتقد بعض الباحثين أن الممالك البربرية القديمة كانت ذات أمد حياة قصيرة، باستثناء التحالفات القبلية الواقعة في مناطق جغرافية متشابهة أو التي تتحدث لغة واحدة. كانت هذه الوحدات الجغرافية الكبيرة تساعد على تكوين مملكة قوية، مع فروع قبلية وقائد رئيسي يتخذ القرارات بناءً على مشورة القوى القبلية الأخرى. قد يكون هناك أيضًا تأثير سلطة دينية على هذه المملكات.

لقد أعطت بعض المصادر أسماءً للعديد من هذه المملكات، وعلى الرغم من اختلاف أصول بعضها النسبية، إلا أنها شكلت تحالفات قبلية كبيرة تحمل اسمًا مشتركًا. وقد ذكر المؤرخ هيرودوت بعض هذه التحالفات الكبرى في المناطق الليبية، والتي امتدت حتى مناطق تونس. وكانت هذه القبائل بدوية متنقلة تمثل مجموعات قبلية صغيرة. لقد كانت تتواصل هذه القبائل البربرية عبر البلاد من الشرق إلى الغرب في سلسلة لا تنتهي من القبائل التي تختلف في الحجم والقوة. واستمرت هذه القبائل في الحفاظ على أراضيها وتوسيعها على حساب القبائل الأخرى. وبالتدريج، انتقلت هذه القبائل من تحالفات القبيلة إلى تشكيل مملكات (دولة القبيلة). وعلى الرغم من عدم وجود سجلات محددة لبداية هذا الانتقال، تشير الأدلة إلى وجود مملكات بربرية منذ عصر الأميرة عليسة في القرن التاسع قبل الميلاد. وتشير المصادر أيضًا إلى ظهور المملكات البربرية الكبرى مع بداية الصراعات القرطاجية. في هذا السياق، وفي حال صحة تصريحات الملك هيمبصال، بدأ ظهور هذه المملكات غربًا. وخلال الفترة القرطاجية، وجدت ثلاث مملكات كبرى في بلاد المغرب.

1-المملكة المورية:

أُطلق على سكان المنطقة المغربية القديمة اسم "الموروزيين" وكذلك "الماوري" من قبل الإغريق واللاتينيين، وكان البربر يشيرون أيضًا إلى أنفسهم بهذه الألقاب. وهناك تباين حول أصل هذه التسميات. وفي إحدى الروايات، يُعتقد أنهم كانوا ميديين، الذين هاجروا مع القائد هرقل واصطفوا تحت اسم "الموري" وهذا هو الاسم الذي أطلقهم عليهم البربر. ووفقًا لمؤرخ آخر بمعرفة اسم "بوشار"، فإن أصل الكلمة هو فينيقي، حيث ترجمتها "مهو حرم" وتعني "الغربيون" أو "الساكنون في الغرب".

هذه المملكة أصبحت معروفة بعبارة "موريتانيا" عند الإغريق، وظل هذا الاسم مستخدمًا على مر العصور بوصفه اسمًا عامًا لمناطق تواجد البربر، سواء أثناء الفترة الوندالية، البيزنطية، أو في أوقات أخرى. يبدو أن هذه المملكة نشأت في القرن الرابع قبل الميلاد، أو ربما حتى قبل ذلك. وقامت بتطوير علاقات مع الممالك المجاورة لها، ولا سيما مع قرطاجة. وفي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، يُذكر لنا اسم ملكها "باغا"، الذي ساند الملك ماسينسان في حكمه، ومن ثم ملكها بوخوس، الذي كان أيضًا صهر الملك يوغرطان.

ان تاريخ الحدود لهذه المملكة كان متغيرًا باستمرار، حيث تمتد من الساحل البحري إلى البحر الأبيض المتوسط دون اختراق كبير في الداخل، الذي كان يعتبر موطنًا للقبائل القوية من نوع جيتولي. وتنتهي حدودها عادة عند نهر الملوية، الذي كان يشكل حدًا فاصلًا بين مملكتها ومناطق النوميديين، وهذا كان ساريًا في معظم الأوقات حتى أيام يوغرطان، وفقًا لما ذكره الجغرافي القديم سترابون.

2-المملكة النوميدية:

كلمة "نوميدي" هي مصطلح يستخدم لتمييز بعض الأجناس البربرية، واستخدمها المؤرخ "بولبيوس"، وتم العثور عليها في القرن الخامس قبل الميلاد. كانت هذه الكلمة تُعرف بجميع أفراد القبائل البربرية في بلاد المغرب، باستثناء تلك الموجودة في منطقة قرطاج. بعد ذلك، انقرضت معناها تدريجيًا، وأصبحت تُعرف فقط بالبربر في المناطق الوسطى من المغرب، بين قرطاجة وموريتانيا، واستمر انقباض معناها أكثر أثناء الحكم الروماني بسبب توسع موريتانيا. وبقي الاسم نفسه باللغة الإغريقية، حيث يعني "البدو الرحل"، وهو اسم وصفي بالأساس أكثر من كونه اسمًا نسبيًا أو قبليًا.

تم تأسيس مملكتين كبريتين في بلاد المغرب النوميدي منذ القرن الثالث قبل الميلاد، أو ربما حتى قبل ذلك، وهما مملكتا الماسيل والماسيسيل. وكلا الاسمين هما من الأصل البربري، ومفردهما هما "ماسيسول" و"ماسيل". اعتمد الإغريق على هذين الاسمين وضاعفوا الحروف لتصبح "الماسيل" و"الماسيسيل".

الماسيسيل:

هذه القبيلة كانت معروفة في بلاد المورية، وذكر "بلين القديم" أنها انقرضت نتيجة الحروب، وانتقل بعض أفرادها إلى منطقة جيتول وغرب الجزائر الحالية، حيث أسسوا مملكتهم. انطلقت أسماء هذه القبيلة في السجلات التاريخية منذ الحرب البونية الأولى، وكان لديهم ملك يُدعى "سفاقص."

بحسب ما أفاد به سترابون، فإن هذه المملكة امتدت من نهر الملوية إلى رأس تريتون، الذي يقع في الجزء الشمالي للمنطقة القسطنطينية. كانت عاصمتهم سابقًا في "سيغا" بالقرب من نهر التافنة، وبعد ذلك تحولت إلى "سرتة". ووفقًا لسترابون، كانت هذه المملكة غنية للغاية وكانت تُموِّل البلاد المغربية وغيرها بالفضة وتوفير الجنود.

الماسيل:

إن هذه القبيلة، كذلك، ليست لديها منازل قديمة محددة بدقة، وتاريخ وجودها يظهر منذ الحروب البونية الأولى. ذكر الإشبيلي إيزيدور أن جبال الأطلس المغربي كانت منازلهم، حيث وجدت مدينة ماسليا. وأما بلين القديم، فأشار إلى منازلهم في الإقليم الإفريقي.

تبدأ ذكر هذه القبيلة في الحرب البونية الأولى، وأثناء الحرب البونية الثانية تم تعريفنا بملكهم "غايا" الذي كان جزءًا من سلالة ملكية قديمة، ويبدو أنه كان واحدًا من الأسلاف الملوك.

سترابون أشار إلى حدود المملكة التي تبدأ من نهاية نهر "لمبساغا" جنوب غرب رأس تريتون، وكان هذا النهر بمثابة حدودًا طبيعيةً في فترات زمنية مختلفة. امتدت حدود المملكة حتى الحدود التونسية لقرطاجة. ومع ذلك، يبدو أنها انكمشت بسبب التوسع القرطاجي، وبالتالي أصبحت تمثل الإقليم الحالي في القسنطيني لاحقًا، عادت للتوسع مرة أخرى في عهد ملك ماسينيسان وأصبحت تمتد إلى الأراضي التونسية والليبية. توحدت هاتين المملكتين النوميدية بعد الحرب البونية الثانية (152 ق.م.). كانت عاصمة المملكة القديمة هي "هيبورغيوس" أو "زاما"، ثم تحولت إلى "سيرتة" بعد التوسع. نهايتها جاءت عندما ضمت روما أراضيها في عام 33 ق.م.

هذه المملكة كانت مملكة متحالفة بشكل أقوى من غيرها، وسكانها كانوا مرتبطين بالأرض بشكل أكبر. كانت تمتلك مدنًا عددًا أكبر وحققت مستوى أعلى من التقدم الحضري. كان لديها تأثير كبير بسبب قربها من تأثير الإمبراطورية القرطاجية وتحالفها مع الرومان.

3- قبائل الجيتول:

في جنوب هذه المملكة، ظهرت قبائل جيتولية قوية معروفة بالحياة البدوية. يبدو أن اسم هذا الحلف القبلي كان يشير إلى قبيلة واحدة في البداية، ولكن توسع ليشمل قبائل أخرى تشاركها نفس طريقة الحياة. على الرغم من قوة هذا الحلف القبلي، إلا أنه لم يسعى لتأسيس مملكة مركزية تجمع جميع هذه القبائل تحت سلطته. منازل هذا الحلف القبلي كانت تمتد عبر المنطقة الجنوبية الشاسعة من أقصى شرق ليبيا إلى المحيط الأطلسي في الغرب، عبر الحدود الصحراوية المتجاورة لمنازل الإثيوبيين. وكانت قبيلة "الأوتولوليس" واحدة من أشهر فروع هذا الحلف القبلي، موجودة في جنوب موريتانيا. على الرغم من ذلك، تعرضت قبائل هذا الحلف للانضمام في المملكات البربرية الشمالية دون أن تفقد قوتها واستدامتها. ولذلك، بقيت هذه القبائل مستقلة ومتمسكة بطريقة حياتها البدوية.

خصوصيات عامة:

في هذه الممالك، كان دور الملك يعتمد على القوة العسكرية والقدرة على القيادة. الملك عادة موروث داخل الأسرة المؤسسة لحلف القبيلة أو المملكة. يتم انتقال السلطة إلى أكبر رجل من العائلة المالكة من خلال زواج شرعي. هذا التقليد مشابه للأنظمة القبلية العشائرية التي تعتمدها بعض الشعوب. كانت هذه المملكة تتشكل من حلف قبلي ولكن لا تكون الروابط دائمة دائماً، حيث كانت القبائل تتغير في ولائها وتنتقل إلى مملكات أخرى في بعض الأحيان، وقد يحاول بعضهم الاستقلال عن الحلف القبلي. عادةً ما كان لدى الملك لقب "إقليد" وكان بعض هؤلاء الملوك يشتهرون بشكل خاص.

سيفاقص:

أول ملك معروف حكم مملكة الماسيسيل كان يسمى ذكرا، وقد أقام علاقات قوية مع قرطاجة، وتحالف معهم. وقد نافس روما أيضًا للتحالف معه. تشبه هذا الملك في العديد من النواحي الملوك الإغريق. قام بوضع التاج الحلقي على رأسه وصاغ صورته على العملات، والتي ربما تعتبر أول عملات تم ضربها في منطقة المغرب. ومع ذلك، كانت مملكته هشة وسرعان ما انهارت بفعل حصار قامت به ماسينيسان لعاصمتها.

ماسينيسا:

أحد أعظم ملوك البربر القدماء، الذي كان أكثرهم ملكًا وأوسعهم في الأراضي، وأقواهم من ناحية الجيش، والذي نظمه على الطريقة الرومانية، وأحسنهم إدارة لمملكته، وأقواهم من الناحية الاقتصادية، وأسس أكبر أسرة حاكمة، حكم بلاد النوميديين لمدة تزيد عن قرن، ثم حكم بلاد الموريتانيين لأكثر من ستين سنة.هذه المملكات البربرية القديمة قامت بمجموعة من الحروب، بما في ذلك حروب محلية تمثلت في توسيع

حدودها وصد الهجمات، وأيضا نزاعات قبلية تجددت بين فترة وأخرى. ومع ذلك، فإن تاريخ هذه المملكات لم يكن بالضرورة مظلمًا، كما حاول المؤرخون المعاصرون وصفه. فقد كانت مملكات ناشئة في منطقة قبلية صعبة، وكانت محاطة بأعداء ومتنافسين كثر. على الرغم من أنها عرفت حروبًا في بعض الأحيان، إلا أنها عرفت أيضًا رخاءً وتقدمًا واستقرارًا في فترات أخرى. لها تشابه مع مملكات أخرى في مراحل تكوينها، وكانت محدودة بالتحديات الاجتماعية والجغرافية والبيئية التي منعتها من تحقيق التقدم الحضاري الكامل.